



لوحة رقم (٧) نيكولاس برتشميم – الطبيعة في إيطاليا.

المرحلة الأولى : التحليل الوصفي

عند ما ننظر إلى هذه اللوحة التي قام برسمها الفنان الهولندي (نيكولاس برتشميم) في منتصف القرن السادس عشر عام ١٦٥٠م ، يشدنا الانتباه للوهلة الأولى ذلك النصب الحجري العملاق المفرد الذي لا يتصل به سوء سور ربما من بناء أو جدار أثري أو شاهد قديم في أقصى يسار اللوحة . وقد تخلله بوابة ضخمة مقوسة ، تشبه الأعمدة والأقواس في داخل بعض المساجد أو بعض المحاريب . وقد احتل هذا النصب مركز السيادة في العمل الفني ، وقد بلغت رسوخه وصلابته حتى أنه غطى ثلثي المساحة ، وزاد من ضخامته اتساع فضاء السماء التي أخذت لون الشفق ربما لقرب غروب الشمس . وفي السماء نرى

أيضاً غيمه ضخمة في المنتصف العلوي للوحة ، ونرك كذلك مجموعة من الطيور وقد أفردت جناحيها وتحرك باتجاهات عشوائية ، ربما تكون حمام أو غربان أو نسور أو صقور نظراً للطبيعية الجبلية التي صورها الفنان . وعندما نتمعن مرة أخرى في مدى ارتفاع ذلك النصب نرى أنه قد احتوى في أعلاه على مجرى قديم لقناة يجري فيها الماء لتحمله إلى القرية لتصل إلى الناس والبيوت . ولذا نرى أنه قد نمت في أعلاه وفي بعض جوانبه بعض الشجيرات الخضراء أو الحشائش الصغيرة وكذلك بعض النباتات المتسلقة والامتدالية . وفي أقصى اليمين للوحة توجد مجموعة من التلال والهضاب الصخرية وأيضاً بعض السلاسل الجبلية قليلة الارتفاع . ويحيط بأسفل النصب مجموعة من قطعان الماشية ربما من الأبقار أو الثيران ومن خلفهم يقودهم مجموعة من الرعاة أو الفلاحون مكونة من رجلين وامرأة تمتطي حمار وهم يرتدون قبعة وملابس ذات طابع روماني بالإضافة إلى كلب الصيد أو الرعي الذي يوجد بجوارهم الذي يقوم بحراسة القطيع . فإننا إذن أمام مشهد من الطبيعة في إيطاليا حيث يرى هؤلاء الفلاحون في أرض صخرية معروفة بجذبها للمياه . لهذا نرى القطيع يبحث يمناً وميسرة عن الكأ والعشب الغض لاستمرار حياتها .

المرحلة الثانية : التحليل الشكلي

إن الفنان (برتشميم) قد ارتكز في عمله على الشكل الأساسي الذي يمثل النصب الصخري ببعده المنظوري الذي جسده بدقة وإتقان من خلال تجسيده بأبعاده الثلاثة على مساحة اللوحة وكأنا نشاهده بروئيتنا له في العمل الفني واقعاً أمامنا. أما الأشكال التي تقع خلف وجوار النصب فقد عمد الفنان إلى عدم إبراز تفاصيلها حتى أنها غدت كالضبابية ، حيث قصد الفنان من ذلك هو عدم تأثير تلك الأشكال على الشكل الأساسي في المنتصف عند رويتنا البصرية للوحة. بالإضافة فقد حرص الفنان على إبراز الملامح التفصيلية للملابس والقبعات القطنية التي يرتادها الفلاحون حتى يظهر طبيعية العمل الذي صوره لأي عصر يرجع ولأي ثقافة ينتمي .

عمد الفنان في عنصر اللون إلى وضع سيادة الألوان الداكنة في الأرضية والتي تخف حدتها كلما اتجهنا إلى فضاء السماء في الأعلى . فهذا الأسلوب يزيد من رسوخ

وصلاية النصب الحجري المتمركز في منتصف العمل الفني . كذلك فإن الفنان (برتشيم) قد استخدم مجموعة من الألوان الدافئة بكثرة وهي تضم اللون الأصفر ، واللون البرتقالي والألوان القريبة منهما مثل اللون البرتقالي المحمر والبرتقالي المصفر، كون الوقت الزماني الذي تمثله اللوحة هو يعبر عن وقت غروب الشمس وانصراف الفلاحون والرعاة مع ماشيتهم إلى بيوتهم قبل مجيء الليل بظلامه الدامس. فتلك الألوان أوحى إلى جمال الطبيعة التي صورها الفنان وحيث أضفت نوعاً من الشاعرية المكان والزمان والتي تؤثر في داخل النفس عند رؤيتها . وعندما انعكست تلك الألوان على النصب الصخري فإنها أوحى بالإحساس بأن المساحة التي تظهر فيها النصب يبدو أكبر من مساحته الفعلية بالنسبة لمساحة فضاء السماء وهذا بخلاف الواقع .

أما عنصر الخطوط فقد تراوحت بين الاستقامة والتعرج ، وبين الليونة والخشونة . فالاستقامة تمثلت في النصب الصخري الذي أوحى خطوطه على شموخه وثباته ومقاومته لمتغيرات الأزمنة والعصور . أما الخطوط المنكسرة والمتعرجة فقد ظهرت في بقايا الجدران المهذمة والأبنية القديمة والشواهد الأثرية والتي توحى بزوالها واضمحلالها وعم ثباتها وصمودها وكذلك عدم الارتياح لما آلت إليه .

المرحلة الثالثة : تحليل المعنى
أ- التحليل الداخلي أو الضمني

عندما نمعن النظر في كل هذه الضخامة الشاهدة على إصرار وعزيمة الإنسان العصر الروماني الذي بناه ، وقد تسلفته بعض النباتات الصغيرة في حجمها والضعيفة في قوتها ، وقد تربعت فوقه بعد أن صمدت أمام تداعيات الزمان . فهذا الأمر قد يوحي بأن الحياة أبسط في مكنوناتها في أضعف خلق الله أمام عظمة ما تصنعه يد الإنسان ، وإن كان نصباً عملاقاً يشهد بقوة إرادته وثبات عزمه .

وقد يوحي أيضاً بأن ما تصنعه تلك اليد ومهما بلغ من الدقة والمهارة في الصنعة . فإن ذلك يظل بحاجة إلى اللمسة الجمالية التي تضيفها جمال طبيعة الحياة التي هي من صنع الله من خلال الزخارف التي أوجدتها تلك النباتات المتسلقة . وقد يوحي لنا الجزء

المتبقي من مجرى قناة الماء أو العيون ، بصورة تاريخية عن إنسان ذلك العصر ، وأساليب تدبره للحياة والتقنيات البدائية التي استخدمها . كما يوعز لنا هذا النصب بطبيعته الجغرافية بأن ذلك العصر الروماني كان عصر حضارة ناهضة ، ربما يرجع لعهد الإمبراطور (أغسطس) والتي تمثلت نهضة عصره في الأبنية الشاهقة والنصب الضخمة وإنشاء القنوات المائية ونظم الري والصرف الصحي وشق الطرق وتعبيدها والتقيد بالقوانين الصارمة والتمسك بالصفات الرومانية الخالدة التي برزت في صفات الفضيلة و الشجاعة والقوة وشدة المراس وضبط النفس.

ب- التحليل الخارجي أو غير الضمني

أن الفنان (نيكولاس برتشميم) قد عاش طوال حيات في هولندا في أحد ضواحي (هارلم) القريبة من مدينة (أمستردام) في الفترة من (١٦٤٢ - ١٦٤٥م) حيث قاده حنينه في أحد السنوات للسفر إلى إيطاليا على غرار الكثير من الفنانين الهولنديين الذين سافروا إلى (روما) لينكبوا على تصوير المشاهد الطبيعية . أما الفنانين الذين لم يسافروا وبقوا في هولندا فقد انكبوا على تقليد ما صوره هؤلاء العائدون من (روما). وفي عام ١٦٥٥م زار (برتشميم) روما وبعد خمس سنوات عاد إلى هولندا ليرسم هذه اللوحة التي تجسد الطبيعة الإيطالية ، والتي أمدته ذاكرته وتخطيطه الأولي بما قد رآه آنذاك في المدن الإيطالية. وقد مهدت أعمال (برتشميم) وزملائه الفنانين الآخرين إلى ظهور المدرسة الهولندية في التصوير التي انصبت اهتمامها في المقام الأول في تسجيل المناظر الطبيعية من الحياة الريفية والأثرية والشعبية محل الموضوعات السائدة في عصر النهضة .